

العداء « تصور حياتنا آخر من جوانب النضال الفلسطيني . وقد بدت فيها الكتابة أكثر حكمة ، ودرابية بالفن القصصي ، واعتمدت في تسلسل الحوادث على الواقع الذي عاشته ورفيقاتها في آخر أيام النضال قبل سقوط عكا وحيفا في أيدي الاعداء . كانت سيرة نفسها قد ساهمت مع سيدات عكا في حياكة القمصان الصوفية لاهدائها إلى أفراد الحرس القومي وكتابة عبارات مشجعة على بطاقات يضعنها في جيوب القمصان ، وهكذا كانت بطله القصة المرضة « سعاد » التي التقت صدفة بحارس المستشفى الليلي الذي كان قميصها من نصيبه وفي جيبه عبارتها التي تقول : « أرجو أن تكون من نصيب بطل » . (وسيرة معروفة بخلق الصدف الحلوة وتدبير المناسبات الموحية في قصصها بصورة عامة) . ويتكرر لقاءهما ، في طابور التدريب والتأهب وفي أوقات الراحة القليلة ، ونما الحب بينهما . وهنا تعاود الكتابة ذكرياتها عن طبيعة بلادها الجميلة فنكتب : « كان الوقت ربيعا ، وربيع فلسطين بحر أزرق تتهادى عليه أشعة المراكب البيضاء نهارا ، وترصعه فوانيس قوارب الصيد ليلا ، وبساتين يرتقال يكف عبقها الهواء . . وفي ربيع ذلك عرف شيئين . . الحب والحرب » . الحب هو الذي يعطي المعنى للحرب ، وما الحرب في نظره الا حق حياة للأرض التي يحب ، والفتاة التي يحب : « ومع كل اطلالة صباح . . كان يستقبل خيالها . . جنبا الى جنب مع أبناء الممارك في صحف الصباح . . معركة القسطل ، هجوم قومه من مثلث الرعب على قرى الاعداء . . غاراته وأخوانه على المصفحات اليهودية المتسللة على طريق حيفا - عكا نهائيا ، بطولة قومه في سلمة وفي كل مكان » . وكانت الحرب أقوى من الحب ! فوقعته كارثة حيفا وخرج النازحون يتلمسون طريقهم الى الميناء وأخذ الاعداء يمتطرون الطرقات والشعاب بالرصاص . أما هي فقد رفضت الزواج مع اهلها ، وأما هو فقد بقي ليؤدي ما وكل اليه من جمع الذخيرة من القرى نهارا والقيام بالحراسة مع رفاقه ليلا . وعرفت « سعاد » طريقهم وأخذت تحضر لهم كل يوم صرة مملأ بالخبز والسجائر والخلوى . وتبلغ المأساة ذروتها على يدي الكاتبة عندما تلاقى « سعاد » البطلة مصيرها المحتوم وتصيبها رصاصة وهي تمرق من باب الخديقة الى حيث تبع ورفاقه وراء المتاريس . وبشيء كثير من رقة الشعور ورهافة الحس تصف الصراع العنيف في نفسه ونفس رفاقه بين أن يطووا ضلوعهم على الجوع أو يمدوا أيديهم الى الصرة الممزقة والارغفة الملوثة بدمها الزكي ، ومرة أخرى تنتصر ارادة الحياة ، فما زال امامهم شوط طويل ، وعيونهم لن تنام عن الثأر ، فليكن الخبز هو « خبز الفداء » .

في مجموعة « الظل الكبير » صورتان فلسطينيتان غاية في الروعة والانسانية ، اوحت بأولاهما اليها عبارة وردت على لسان مذيع اذاعة الشرق الادنى ، ضمن « رسائل اللاجئين الى ذويم » تقول كلمات الرسالة : « من جميل عبدالله في بيروت الى والده كريم عبدالله والديه سلمى واخته وداد في يافا : انا بخير كذلك خطيبتي ناديا . سنزوج في الساعة الثالثة من بعد ظهن الثامن من ايار في كنيسة « السيدة » ، ثم نسافر لاعمل في الكويت . مشتاقون ، طمنونا بواسطة الاذاعة » . ولكن ، ماذا بيد « سلمى الصواف » وزوجها ان يفعلا في يوم فرحة ولدهما « جميل » سوى ان يذيع المذيع ردهما على الرسالة فيقول : « من كريم عبدالله وزوجته سلمى وابنته وداد وزوجها . . نبارك زواجك وتدعو لك بالخير » . تصور سيرة قمة الفاجعة حين تقول : « وبيروت ليست في السند او الهند . بيروت لا تحتل اكثر من ساعات ست في مشوار سيارة . . ولا تحتل اكثر من نصف ساعة في طائرة . . ومع ذلك فمستحيل المستحيل لديها (سلمى) ان تذوق فرحة العز وتكحل عينها برأى جميل عريسا . . وتتساءل سيرة : « اية قسوة في الحياة تشتط فلا تشفق على قلب أم ولا تفرح قلب أب . . » وتتحدث عن مشاعر الأم حين بلغت الساعة الثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم ، وتستعرض الشريط الجميل الذي مر بخيالها لولدها الصغير